

## سيرة أكرم الشجر (٥)

قبس محمد

كاتب صحفي

mr\_alsamarie@yahoo.com

# النخلة ... في المأثورات والأمثال والشعر العربي

يهودياً قائلًا:

◀ ما هي أهم الأثمار عندكم؟ التمر.

◀ ثم ماذا؟ التمر أيضاً.

◀ وكيف ذلك؟ لأنّ النخل نستظلّ بسعفه ونصنع من جذوعه سقوفاً وأعمدة بيوتنا، ونتخذ منه ومن جريده وقودنا، ونصنع منه الأسرة والحبال وسائر الأواني والأثاث. ونتخذ التمر طعاماً مغذياً، ويعلف بنواه ماشيتنا، ونصنع منه عسلاً وحلوى، إلى غير ذلك.

وقال مجاهد: إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبُل، وإذا جذدت فائق لهم من التاريخ، وإذا دَرَسْتَهُ وذريتُهُ فاطرح لهم منه. وتشبه النخلة الإنسان، فالنخلة ذات جذع منتصب ومنها الذكر والأنثى، وأنها لا تثمر إلا إذا لقحت، وإذا قطع رأسها ماتت وإذا تعرض قلبها لصدمة قوية هلكت، وإذا قطع سعفها لا تستطيع تعويضه من محله، كما لا يستطيع الإنسان تعويض مفاصله، والنخلة مُغشاة بالليف الشبيه بشعر الإنسان، فهل لا تكون هذه الصفات شبيهة بصفات البشر. (١)

وروى ابن قتيبة عن الخليفة علي بن أبي طالب

النخيل السامق المتطاوّل في كبد السماء عرفته الحضارات القديمة في العراق ومصر وبقية الدول المجاورة. النخلة الشجرة المباركة التي ورد ذكرها في كتاب الله المجيد وفي سنة النبي الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وفي أسفار التراث العربي والإسلامي عبر العصور، مما يدل على مكانتها الأثيرة عن الناس.

وقد أخذت أكرم الشجر "النخلة" مكانة بين الناس من خلال تداولهم للأمثال التي ضربوها عنها، وفي قصائدهم الشعرية التي ازدان بها ديوان الشعر العربي قديمه وحديثه. وهذه وقفة عند تلك الأمثال العربية والقصائد التي ديج الشعراء قوافيهم العديدة للشجرة المباركة.

## في المأثورات العربية:

وردت الإشارات لذكر الشجرة المباركة في المأثورات العربية المختلفة. فقد كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم في عهد النبي الكريم عليه الصلاة والسلام يأتي كل واحد منهم من أصحاب النخيل، بقنو "عذق" عند جذائه ثم يعلقه على باب المسجد يأكل منه من يشاء. كما تروى في ذلك حكايات طريفة منها: أن أحدهم

يزعمون أنها تقول في صباحها: " هذا أوان الرطب". والنخل لم يطع بعد، وهو مثل مؤلد، مأخوذ من قول الشاعر:

**أَكْذَبُ مِنْ فَاخِتَةِ**

**تَقُولُ وَسَطَ الْكَرْبِ**

**وَاطَّلَعَ لَمْ يَبْدُهَا**

**هَذَا أَوَانُ الرُّطْبِ (٧)**

أما كمال الدين الدميري، فقال في " حياة الحيوان الكبرى"، عن التمر في الأمثال كقولهم: " التمر في البئر وعلى ظهر الجمل"، وأصله أن منادياً كان في الجاهلية يقف على أطم من أطام المدينة حين يدرك التمر وينادي بذلك. أي من سقى ماء البئر على ظهر الجمل بالسانية "الساقية"، وجد عاقبة سقية في تمره. (٨)

**النخل والتمر في الشعر:**

تغنى الشعراء العرب في العصور الأدبية بالنخل والتمر التي شاهدها وألفوها شامخة بكبرياء في مجتمعاتهم الحضرية والصحراوية. فذكر الشعراء النخلة في ديوان الشعر العربي قبل الإسلام عند شعراء المعلقات المعروفين: كأمرئ القيس والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى والنابغة الجعدي والأعشى قيس، وعند الشاعرة الخنساء، كما بقيت موضوعات النخلة موضوعاً تناولته الشعر في كل العصور اللاحقة... (٩)

فقد شبه الشاعر امرؤ القيس ناصية الفرس بسعف النخلة قائلاً:

**واركب في الرّوع خيافنة**

**كسا وجهها سعف منتشر**

**وله في وصف حبيبته قوله:**

**وفرع يغشي المئن أسود فاحم**

**اثبت كقنوا النخلة المتعكل**

كما وصف الشاعر النابغة الذبياني تمرأ بقوله:

الحَرَابِ لِاتقريبها الذباب مرفوعة عن التراب، ثم تصير ذهباً في كيسة الرجال يُستعان به على العيال". (٤)

وذكر ياقوت الحموي في "معجم البلدان" عن أول من غرس النخل بمدينة البصرة في ذكره للمدينة فقال، قال الأصمعي: " لما نزل عتبة بن غزوان الخريية، وُلِدَ بها عبدالرحمن بن أبي بكر. وهو أول مولود وُلِدَ بالبصرة. فتحر أبوه جزوراً أشبع منها أهل البصرة. وكان تمصير البصرة في سنة أربع عشرة، قبل الكوفة بستة أشهر. وكان أبو بكر أول من غرس النخل بالبصرة. وقال: هذه أرض نخل ثم غرس الناس بعده". (٥)

**أمثال عربية:**

من أمثال العرب التي ضربت في النخلة والتمر ما رواه العسكري في كتابه "جمهرة الأمثال"، فذكر مثلاً يقول: "مواعيد عرقوب"، وثبته تحت عنوان: "أخلف من عرقوب"، ويروي حكايته كالاتي: "وهو رجل وعد رجلاً بتمر نخله، ومطله، حتى إذا أدركت جاءها ليلاً فصرمها، وأخذها، فقيل "مواعيد عرقوب". أي مواعيد فيها خلف، من قولهم: جاء بأمر فيه عرقوب، أي التواء، قال الشاعر:

**"الأيأس أيسر من ميعاد عرقوب" (٦)**

كما أشار المؤلف إلى مثل آخر في كتابه هو: "أكذب من فاخنة". والفاخنة من الحمام ذوات الأطواق، وتوصف بحسن الصوت، ويصفونها بالكذب فيقول "أكذب من فاخنة". لأنهم



رضي الله عنه، قال: " من أكل كل يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل داء في بطنه". (٢)

وقال محمد حسين هيكل في كتابه " الفاروق عمر": "أفاء الله على المسلمين بعد غزوة السقاطية" حدثت بين العرب والفرس أيام المثنى بن حارثة الشيباني في خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه، "مغانم كثيرة بينها من الأطعمة مقادير عظيمة، فلم يفرحوا منها بشيء فرحهم بلون من التمر يدعى - النرسيان- كان ملوك الفرس يحبونه، وقد اقتسموه بينهم وجعلوا يطعمون منه الفاتحين، ثم بعثوا بخمسة إلى عمر بالمدينة وكتبوا له: "إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحبونها، وأحببنا أن تروها لتذكروا أنعم الله وأفضاله".

وقال الأعمش: كان الربيع بن خيثم يضع لنا الخبيص- طعام يُصنع من التمر والسمن- ويقدمه ويقول: "اللهم اغفر لأطبيهم نفساً، وأحسنهم خلقاً، وأرحمهم جميعاً". (٣)

ووصف خالد بن صفوان كما أشار الباحث كوركيس عواد وصفه للخليفة الأموي عبدالملك بن مروان في الإشادة بمحاسن مدينة البصرة بالعراق، حين وصف ابن صفوان النخل بأسلوب رائع منذ خروج الطلع حتى نضج الثمار قائلاً:

"يخرجن أسفاطاً وأوساطاً كأنما ملئت رباطاً، ثم يتقلن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ الأبيض، ثم تتبدل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الأخضر، ثم تصير ياقوتاً أحمر وأصفر، ثم تصير عسلاً في شفة من سحاء ليست بقربة ولا إناء، حولها المذاب ودونها

بينما قال الأمير الأموي عبدالرحمن الداخل "صقر قريش" عندما فتح بلاد الأندلس، ونقل الفاتحون العرب المسلمون زراعة النخيل من بلاد الشام إلى الأندلس، فوصف الداخل النخل السامق بقوله:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل  
فقلت شبيهي بالتغرب والنوى  
وطول اغترابي عن بني وعن أهلي  
نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي  
كما كان بائعو التمر في الأندلس يغردون  
بأناشيدهم عن صنف من تمر بلاد المغرب،  
اسمه "حفصة"، وأتوا به من منطقة  
سجلماسة"، وهي قرب مراكش المغربية وتسمى  
اليوم "تافلليت"، فيغنون قائلين:

جلبوك يا حفصة من مكان بعيد

من سجلماسة ونقطة ومن بلاد الجريد  
وإذا أحس عبد الرحمن الداخل بغربة النخل  
عن موطنه الأصلي الشام، فلشاعر أبي نواس  
البصري وصفه لطلع النخل والتلقيح فيقول في  
ذلك:

نخل إذا جليت أبان زينتها

لاحت بأعناقها أعداها النخل



أو كقول الآخر:

والنخل حول النهر مثل عرائس

نصت غدائرها على غدران  
والطلع من طرب يشق ثيابه  
منتشراً كتشتر الجدلان

ومن أشعار مطيع بن إياس الليثي، وكان من  
أصحاب والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي،  
يصف نخلتي حلوان:

أسعداني يا نخلتي حلوان

وأبكياني من ريب هذا الزمان  
وأعلمنا أن ريبه لم يرزل

يُفرق بين الألاف والجيران  
ولعمري لو ذقتما ألم الف

قّة أبكاكما الذي أبكاني  
أسعداني وأيقنا أن نحساً

سوف يأتيكما فتفترقان  
كم رمتني صروف هذي الليالي

بفراق الأحباب والخلان  
ويذكر أنه لما صار الخليفة العباسي هارون  
الرشيد إلى حلوان مرض ووصف له الطبيب  
الجمار، وكان على باب حلوان نخلتان متقاربتان  
فأمر بقطعهما وأكل جمارهما، فدخلت في ذلك  
اليوم جارية، ففنت:

أسعداني يا نخلتي حلوان

وأبكياني من ريب هذا الزمان  
وأعلمنا أن ريبه لم يرزل

يُفرق بين الألاف والجيران  
فقال الرشيد "إننا لله وإننا إليه راجعون، أنا والله  
كنتُ النَّحْسَ، فتطير من ذلك، وما زال يردد  
البيتين إلى أن وصل إلى خراسان، وحين وصل  
إليها اشتدت علته.

صغار النوى مكنوزة ليس قشرها  
إذا طار قشر التمر عنها بطائر  
أما الشاعر زهير بن أبي سلمى فقال:  
وهل ينبت الخطي إلا وشيجة  
وتغرس إلا في منابتها النخل  
وقال الشاعر النابغة الجعدي:

ليالي تصطاد الرجال بفاحم  
وابيض كالأغريض لم يتلهم  
وقال أيضاً:

وإن امرؤ يهدي إليك قصيدة  
كمتبضع تمراً إلى أرض خيبراً  
بينما أورد الشاعر الأعشى قيس قوله:

فلو كنتم تمراً لكنتم حشاه  
ولو كنتم نبلاً لكنتم معاقصا  
في حين ذكرت الشاعرة الخنساء التمر بقولها:

يرى مجداً ومكرمة أتاها  
إذا غذى الجليس جريم تمر  
وهذا حميد الأرقط يصف لنا في أبياته ضيوفاً  
نهمين. نزلوا على تمر فلم يدعوا منه إلا النوى،  
ولم يلقوا إلا ببعضه، فقال:

يسطرون لنا الأخبار إذ نزلوا  
وكلمًا سَطَرُوا للقم تمكين  
باتوا وجلتنا الصهباء بينهم

كان أظفارهم فيها سكاكين  
فأصبحوا والنوى عالي معرسهم  
وليس كل النوى تلقى المساكين

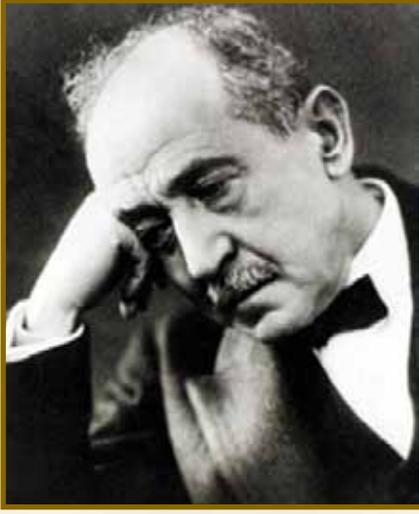
ومن التشبيه الجميل قول أحدهم:  
باسقات النخل في الطلع النضيد  
تتهادى كالعذارى في الحلي



مِن الصَّحْوِ أَوْ مِّن حَوَاشِي السُّحْبِ  
 أما الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي فله  
 قصيدة يقول في أبيات منها:  
**لا أنتِ نامية ولا أنا نام**  
**يا نخلة غُرستِ بأرضِ الشام**  
**عشنا ولكن بانتظار مما اتنا**  
**كمعيشة المحكوم بالإعدام**  
**لا فرق بين شبابنا ومشيبنا**  
**فكلاهما وهم من الأوهام**  
**ربطوا بتربتها جذورك مثلما**  
**ربط السقام بأرضها أقدامي**  
 وللشاعر اللبناني إيليا أبي ماضي، قصيدة في  
 وصف كبرياء النخلة السامقة، منها قوله فيها:  
**أحبت حتى الشوك في صحرائها**  
**وعشقت حتى نخلها المتكبرا**  
**اللابس الورق اليبيس تنسكا**  
**والمشمخر إلى السماء تجبرا**  
**هو آدم الأشجار أدركه الحيا**  
**لما تبدى عريه فتسترا**  
**ابن الصحارى قد تحضر وارتقى**  
**يا حسنه متبديا متحضرا**

في حين وصف شاعر التمر بقوله:  
 أما ترى التمر يحكي  
 في الحُسْنِ للنظار  
 مخازنًا من عقيق  
 قد قُمعت بنضار  
 كأنما الزعفران  
 فيه مع الشهدِ جاري  
 يشف مثل كؤوس  
 مملوءة من عقار (١٠)  
**النخلة في الشعر الحديث**  
 إذا تغنى الشعراء العرب القدامى عبر العصور  
 بالنخلة ورطبها الشهي، فقد تبعم في وصفها  
 الشعراء العرب المحدثون الذين أشادوا بجمالها  
 الفارع وتمرها المتلائي كالقناديل الوهاجة. فهذا  
 أحمد شوقي أمير الشعراء يقول عن الشجرة  
 المباركة بقصيدة منها:  
**أرى شجراً في السماء احتجب**  
**وشق العنان بمرأى عجب**  
**مأذن قامت هنا أو هناك**  
**ظواهرها درج من شذب**  
**وليس يؤذن فيها الرجال**  
**ولكن تصيح عليها الغرب**  
**كسارية الفلك أو كالمس**  
**للة أو كالفنار وراء العيب**  
**تطول وتقصُر خلف الكتيب**  
**إذا الريح جاء به أو ذهب**  
**تخال إذا اتقدت في الضحى**  
**وجر الأصيل عليها اللهب**  
**وظاف عليها شعاع النهار**

أسفاط عسجدِه فيها لآلئها  
 منضودة بسموط الدر تتصل  
 يفتضها فطن عالج بها خبر  
 فض العذارى حلاها الريط والحل  
 فأقتض أولها منها وآخرها  
 فأصبحت وبها من فحلها حبل  
 لم تمتنع عفة منه ولا ورعا  
 بلا صدقٍ ولم يوجد لها عقل  
 حتى إذا لقت أرخت عقائصها  
 فمال منتثراً عرجونها الرجل  
 فبينما هي والأرواح تنفضها  
 شهرين بارحة وهناً وتنتحل  
 أرخت عقوداً من الياقوت مدمجة  
 صفراً وحمرأ بها كالجمر يشتل  
 فلم تزل بمدود الليل ترضعه  
 حتى تمكن من أوصاله العسل  
 ووصف أحد الشعراء مراتب التمر بقوله:  
**أول حمل النخل طلع يبدي**  
**ثم سياب فخلال بعد**  
**بغو فبسر فمخطم يلي**  
**ثم موكت بتذنوب تلي**  
**فجمسة فتعدة فرطب**  
**وبعد التمر أخيراً يثحسب**  
 أما مراتب النخيل فوصفها أحد الشعراء قائلاً:  
**فسيله قيل لصغرى النخل**  
**وفوقها قاعدة تستعلي**  
**جبارة عيدانة والباسقة**  
**وفوقها ثم السحوق الشاهقة**



ورقته تدوم ولن تحولا  
 هشوشته لدى الإنسان نعى  
 ومبعث لذة طابت فصولا  
 وتمر السكري يفوق حفا  
 على الساهون معسور حصولا  
 أصابع عسجد قد طرفتها  
 بلون المسك أيد لن تزولا  
 وما ذوب النبات له شبيها  
 ولا اللوزين كان له منيلا  
 وفي البرحي دفع البرح دوما  
 سيبقى الداطلي به ذليلا  
 ومن عاف التمور ونال كفا  
 من البرحي عاد لها اكولا  
 وفي البربان لو تدري شفاء  
 لمن وجد الدم الصاي في قليلا (١١)  
 الحسان الباسقات:  
 ونختتم حديثنا عن وصف النخيل في الشعر  
 العربي قديمه وحديثه بقصيدة الشاعر الدكتور  
 ماجد الأحمد "أبو الطيب النميري"، وهي

واستخدامات رطبها الشهّي، فقال فيها:  
 ضحى هبّ النسيم لنا عليلا  
 يداعب شطّ دجلة والنخيلا  
 فشوقنا إلى النزاهات فيها  
 وذكرنا التغارد والهديلا  
 فاقبلنا إلى البستان نسعى  
 فلفينا به ظلّا ظليلا  
 وأنواع التمور به كثير  
 ولم تكن الزهور به قليلا  
 وفي عماتنا النخلات خير  
 عميم كان للقربى دليلا  
 يزيل الضعف بل يشفي العليلا  
 لقد قلت حلاوته ورقت  
 فأصبح قبل جارته اكيلا  
 إذا ما جفّ مكبوسا وأضحى  
 لويا كان جكليتيا جميلا  
 وفي حشو الكليجة لا تسامي  
 لذذته فلا تطلب بديلا  
 وأما الدبس فالعسل المصفي  
 إذا قاسيت لا يغني فتبيلا  
 وإن السمسمة منه شيء  
 له في الحلق ذكرى لن تزولا  
 ترى أعذاق نخلته صغارا  
 ولكن قلتها فاقّ الجليلا  
 وفي البستان خضراوي تمر  
 كان من الخيار به شكولا  
 فخضرتة تنم على جمال

وللشاعرة الدكتورة العراقية الراحلة عاتكة  
 وهبي الخزرجي قصيدة في النخلة منها قولها:  
 تباركت يا نخلة الشاطئين  
 ويا آية الأعصر الباقيه  
 نهلت الخلود من الرافدين  
 فبوركت مسقية ساقيه  
 ترفين في أفك الشاعر  
 رفيف الزهور على الرابيّه  
 وتضفين من لونك السندسي  
 شفوقاً مفوقاً الحاشيه  
 وفي طلوعك النضر كم تنشرين  
 على الكون انفاك الزاكيه  
 وفي ظلك الرحب عند الحرور  
 وأكنافه العيشة الراضيه  
 تباركت في أرضنا جنّة  
 قُطوف عناقيدها دانيه  
 حنانيك يا نخلة الشاطئين  
 أنت على أمسنا باقيه  
 سلاماً أيا نخلة الشاطئين  
 سلامٌ المكر للناسيه  
 أظلي أيا نخلة الشاطئين  
 فؤادي بأفياك الحانيه  
 وُصونيّه من لفحات الهجير  
 وخايف عليه يد الساقيه  
 درر النحور في وصف التمور:  
 ونجد العلامة العراقي الراحل الدكتور مصطفى  
 جواد النخلة قد كتب قصيدة في النخيل أسماها  
 "درر النحور" في وصف التمور، وهي قصيدة طويلة  
 ذكر فيها مكانة النخلة وفوائدها وأصناف

**الهوامش والمصادر والمراجع:**

١- فتحي حسين أحمد وجماعته: زراعة النخيل وإنتاج التمور في العالمين العربي والإسلامي، مطبعة جامعة عين شمس، مصر، ١٩٧٩، ص١٣.

٢- فتحي حسين أحمد وجماعته: المرجع السابق، ص ١٤.

٣- كذلك، ص ١٥.

٤- كذلك، ص ١٦.

٥- ياقوت الحموي "معجم البلدان، مادة" البصرة".

٦- أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبدالمجيد قطامش، دار الجيل، الطبعة الثانية، د.ت، بيروت، لبنان، المثل ٧٤٢، ٤٣٣/١.

٧- أبو هلال العسكري: المصدر السابق، المثل ١٤٧٦، ١٧٣/٢.

٨- الدميري: حياة الحيوان الكبرى، تحقيق الشيخ عبداللطيف سامر بيتية، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

٩- نزار عبداللطيف الحديثي: النخلة في التراث، وقائع ندوة النخيل، المجمع العلمي العراقي، بغداد، العراق، ٢٢ ديسمبر "كانون الأول" ١٩٩٧م، ص٦.

١٠- عبدالجبار البكر: نخلة التمر ماضيها وحاضرها، والجديد في زراعتها وصناعتها وتجاريتها، مطبعة العاني، بغداد، العراق "د.ت"، انظر الصفحات ٢١-٣٦.

١١- عبد الجبار البكر: المرجع السابق، انظر الصفحات: ٢٩-٤٣.

١٢- ماجد الأحمد: الحسان الباسقات، مجلة المرشد، العدد ٣٢، فبراير ٢٠٠٦م، أبوظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة.

إذ كنت صاحبة من الأصحاب

كم قد بكيت لغربتي عن أنسه

وهو الذي داوى جروح عذابي

قد جاورتني (أم عيسى) مرة

فدنوت أطعمها لذيد رطابي

واسيتها إذ لم يكن في يومها

إلا حناني أو أنيس خطابي

مازلت دوماً دوحه لظلامكم

عند الهجير وكثرة الأتعاب

ولقد حفظت شجونكم وشؤونكم

من دون ما كتب ولا كتاب

غنت خمائلي الحسان قصائداً

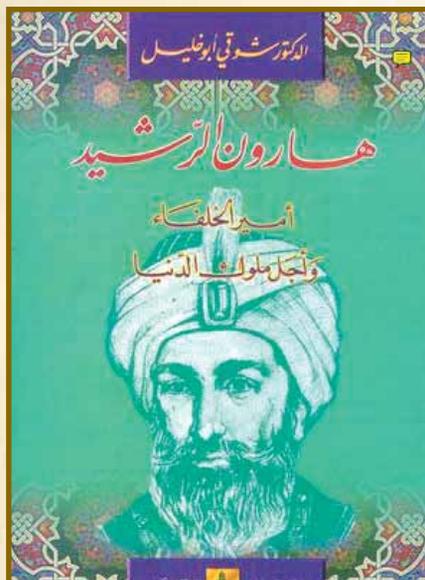
تشجي بلا عود ولا زريب

بس الجمال من ثوبنا ثيابهُ

فاذا نظرت ففتنة بثياب

(العين) أم النخيل واحة خيره

دار الكرام عريقة الأنساب (١٢)



بعنوان "الحسان الباسقات":

عمري مديد لست بالمتصابي

والشعر ابيض ليس شعر شباب

لكن قلبي خفقة ووجيبة

أبدأ يناط بمنزل الأحباب

لم يسأل العشاق عن أسبابهم

وأنا عشقت فلا تسأل أسبابي

الحسن سحر والبيان رديفه

أمران قد ملكا علي صوابي

هذي الحسان الباهرات كما

ترى تغري العيون تطيش بالألباب

كيف الفرار وكلهن جواذب

في طول فاتنة وسمت رباب

خاطبتهن وقد رأيت تمنعا

في ردهن لكثرة الخطاب

نخل تأود بل تؤد بل أتى

بالحسن فوق الوصف والإطناب

و"العين" تطلع للجمال منائراً

من باهرات الحسن دون نقتاب

من باسقات لا يرام كمالها

أو سافرت لم تلذ بحجاب

قالت وقد فرحت بمن قد زارها

قلبي لكم يوم القدوم وبابي

سري بي الحب العظيم إليكم

لم أترب مازلت في أسرابي

أنا أخت ذاك النخل في بلد الهدى

أنا تلك من حنت إلى المحراب

أنا تلك من كانت لأحمد تكاد